الفصل العاشر

نادي المدارس العليا والحركة التعاونية

بين نادي المدارس العليا والحركة التعاونية ارتباط وثيق، يجعلنا نتناول الحديث عنهما في فصل واحد؛ ففي نادي المدارس ظهرت الحركة التعاونية، وكان مؤسسها المرحوم عمر بك لطفي رئيس النادي.

تحدثنا في كتاب (مصطفى كامل) عن تأسيس نادي المدارس العليا، ونوهنا بأثره في تطور الحركة الوطنية والفكرية على عهد مصطفى[1]، والآن نقول: إنه ازداد ازدهارًا في عهد محمد فريد، وظل مشبعًا بالروح الوطنية، فعظمت منزلته في المجتمع، وكان أعلام الفكر يلقون فيه المحاضرات النفيسة، فصار بمثابة معهد علمي، أو جامعة حرة، تلقى فيها الدروس والمحاضرات في مختلف العلوم والفنون.

خطبة الأمير حيدر فاضل

وكان للنادي أيام مشهودة تجلت فيها مكانته العالية، نذكر منها على سبيل المثال يوم (٢١ إبريل سنة ١٩٠٨م)، إذ ألقى فيه الأمير حيدر فاضل خطبة باللغة الفرنسية، موضوعها (اعتبارات عامة على الرقي الأدبي في مصر)، وترجمها على الفور أحمد زكي باشا إلى اللغة العربية، ونالت إعجاب الطلبة والسامعين؛ لما حوته من الأفكار العالية، والمعاني الوطنية الرائعة، وحضر هذا الاجتماع الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد الأول)، ومحمد بك فريد، وقاسم بك أمين، وحفني بك ناصف وغيرهم، وألقى الأمير محاضرته بلهجة خطابية بديعة، ولغة فرنسية بليغة؛ إذ كان متضلعًا في الآداب الفرنسية، ومما قاله مخاطبًا الشباب:

---

(١) راجع الفصل الحادي عشر من كتاب (مصطفى كامل)، نادي المدارس العليا وتطور الأفكار سنة (١٩٠٥م) وسنة (١٩٠٦م) ص١٩٢ وما بعدها (من الطبعة الأولى) وبطبعات تالية.

«إذا كانت العصور التي بنيت فيها الأهرامات قد مضت وانقضت، فقد آن لنا أيها الإخوان أن نقيم بناءنا الوطني، ونسير في سبيل الرقي، لأجل ذلك يجب علينا أن نعمل، اسمحوا لي أن أقول لكم كلمة ربما تجرحكم: إنكم لا تعلمون كما يجب تاريخكم المجيد. ومن الغريب أننا مدينون بذلك التاريخ إلى علماء من الأجانب ولم يفكر كثير منا في مشاركتهم في ذلك. إني أصرح لكم أن الناشئين ينسون أو يتناسون أسلافهم العظماء، فيجب عليكم أن تذكروهم دائمًا، وتعملوا على إحياء مجدهم، وبهذه المناسبة أقول لكم: إن الجامعة سيدرس فيها علم الآثار القديمة، إنني مسرور جدًّا من هذه الحركة المباركة التي تدفع القوم إلى إتمام مشروع الجامعة، وستكون هذه الجامعة حاوية لصنوف العلوم البشرية، ولكنها لن توازي طبعًا في أول الأمر جامعات أوربا، فيجب على من لديه قدرة منا أن يشد رحله إلى ألمانيا وغيرها، فيتم فيها دراسته».

إلى أن قال مشيرًا إلى فضل مصطفى كامل في بعث الحركة الوطنية:

اعملوا أيها الإخوان للغرض الذي كان يسعى له مصطفى كامل، وكونوا وطنيين صبورين، واعلموا أن الجهاد غير قاصر على اقتتال بني الإنسان وإفناء بعضهم بعضًا؛ بل إن من الحروب السلمية، ما هو أشرف غرضًا وأنبل قصدًا، وفي مثل تلك الحروب السلمية قضى مصطفى كامل حياته، ومات وهو في ساحة الوغى، بعد أن أضناه الجهاد (تصفيق حاد)، رأيته في باريس في مقتبل صباه، فرأيت منه نفسًا عالية، وحماسة كبيرة، وتعلقًا بوطنه، ورأيته في الوجه القبلي، حيث الطبيعة في جمالها الباهر، فكان يحادثني بما يجول في نفسه من الأماني والآمال، في خدمة بلاده، فكنت أرى الإخلاص يتجلى في حركاته وسكناته، إني لا أريد أن أطيل الكلام، فإنكم تعرفون مصطفى كامل أكثر مني. إن إرادة الله لا بد أن تنفذ، فاتركوا اليأس واعلموا أن الناشئة التي ترضى الوطن، ستخلد اسمها إلى الأبد بأعمالها، ولتكن آمالكم في خدمة بلادكم كبيرة، وامحوا كلمة المستحيل من قاموسكم، مثل ما فعل

نابليون، تبصروا في العواقب؛ فإن عملكم الذي كلفتم به عظيم، فليكن رائدكم فيه السلم والنظام، والعلم والتحصيل. إن التهور يضر بنا ولا ينفعنا، فإذا أردتم أن تتبعوا نصائح الغربيين، فتجنبوا خيالات كثير منهم، تمسكوا بآداب العلم، وانشروه ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا، واعلموا أن في مصر الآن مشروعًا سيكون من ورائه فائدة كبرى في التعليم، وهو مشروع الجامعة، فعضدوه ما استطعتم، واعتقدوا أنكم بذلك تخطون خطوات نحو الاستقلال، تبينوا حركات الحرية والاستقلال في أوربا، خذوا منها النافع واتركوا الضار، واعلموا أن في أوربا نظامات ربما لا تفيدنا، ومذاهب تخدع الجماهير بظواهرها؛ ولكنها في الحقيقة لا تجر سوى الضرر».

وختم خطبته بقوله:

«إنني أعلم كما يعلم غيري أن آلامكم شديدة؛ ولكن لا يحملنكم ذلك على ارتكاب أعمال تزيد مصائبكم، جاهدوا بصبر وثبات كما كان يفعل مصطفى كامل، لقد أعجبنا أيها الإخوان بالمظاهرات الجليلة التي قمتم به نحو فقيدنا؛ ولكن حافظوا على السكينة، حافظوا وتجنبوا الشطط، وتخذوا السلم رائدًا لكم في كل مظاهراتكم وحركاتكم، واتخذوا الفضيلة والواجب والنصيحة إمامًا لكم. إنَّ مستقبل مصر بأيديكم، فإذا عملتم بهدوء وسكينة وصلتم على غرضكم، وإن نكبتم عن هذا الطريق أخرتم زمن الاستقلال. اتبعوا في أعمالكم نصائح المخلصين والمرشدين، اجعلوا لإحساساتكم قيدًا من عقولكم ولا تدعوها تفيض فتضركم، واعلموا أن من الواجب على الطلبة الاهتمام بالسياسة دون الاشتغال بها. حصلوا العلم ما استطعتم، ادرسوا تاريخ الرجال الكبار، ولا تضيعوا أوقاتكم بقراءة ما لا يفيد، تمسكوا بدينكم؛ ولكن إيَّاكم والانشقاقات الدينية. أحبوا عقائدكم، ولا يحملنكم ذلك على بعض من لا يدين بدينكم، انبذوا الحزازات الجنسية، واعلموا أنه قد اندمجت في جنسيتكم المصرية بعض العناصر الأخرى، فاعتبروهم إخوانكم؛ لأنهم يعتبرون مصر وطنًا لهم، واعلموا أن حاجتنا بيدنا، وأننا قد نؤذي أنفسنا أكثر

من الأذى الذي يلحقنا من أعدائنا، ولتكن لكم عبرة في تلك الحقيقة التي مؤداها أن رحيل السعادة عن أمة من الأمم قد يكون ناشئًا عن أعمالها. أحبوا بعضكم بعضًا، واتركوا التحاسد والتباغض، وليكن التسامح من شيمتكم، اجتهدوا في تزكية أنفسكم من كل عيب ماثل فيها، قوموا بالواجب عليكم، واحصروا آمالكم في الأمور الخالدة، وليؤثر كل منكم صالح الأمة على صالح نفسه، ولا يستخفن أحدكم بما يلحق الأمة من ضرر، فإن الضرر الحائق بالمجموع يلحق الفرد لا محالة. إن كل شيء للفناء والزوال مصيره، فلتكن كل لحظة من حياتكم للوطن والإنسانية، ستقومون أيها الإخوان بمهمة صعبة، بيد أنها شريفة، فإنكم ستمهدون لأمتكم طريق الحرية والاستقلال».

وقد قوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالحماسة البالغة والتصفيق المتكرر.

الاحتفال بأول بعثة للجامعة المصرية

واحتفل النادي يوم (٩ سبتمبر سنة ١٩٠٨م) بأول بعثة أوفدتها الجامعة المصرية إلى أوربا للتخصص في تدريس العلوم والآداب، وكانت هذه البعثة مؤلفة من أحد عشر عضوًا؛ منهم سبعة أوفدوا إلى جامعات فرنسا، وهم الأساتذة: سيد كامل خريج مدرسة الحقوق، ومحمد توفيق الساوي (باشا) المحامي، ومحمود عزمي (بك)، ومنصور فهمي (باشا) الطالبان بمدرسة الحقوق، وحسن فؤاد الديواني الطالب بمدرسة الطب، والدكتور محمد ولي، والدكتور محمد كمال، وأربعة أوفدوا إلى إنجلترا وهم: الأستاذ محمد كامل، حسين القاضي السابق بالخرطوم، ومحمد حسني الطالب بمدرسة المهندسخانة، ومحمد صادق الحائز للشهادة الثانوية من المدرسة التوفيقية، وتوفيق سيدهم الطالب بالمهندسخانة.

كانت هذه الحفلة من أعظم حفلات النادي، حضرها الفقيد، وهتف باسمه المجتمعون، وخطب فيها عبد الحميد أفندي سليمان (باشا) باشمهندس ترعة الإسماعيلية، والأستاذ أحمد وجدي المحامي، وكانت خطبته حماسية، ودع فيها

أعضاء البعثة بلسان الشباب قائلًا: «إني أودع طليعة جيش المجاهدين في سعادة البلاد واستقلالها»، فقوبلت كلمته بالتصفيق الحاد، وتكلم بعده محمود أفندي صادق الموظف بالحقانية، و(الدكتور) أحمد فؤاد الطالب بمدرسة الطب، ومحمد أفندي زكي علي (باشا) الطالب بمدرسة الحقوق، ثم محمد أفندي توفيق الساوي بالنيابة عن البعثة شاكرًا أعضاء النادي على تلك الحفلة الشائقة.

الاحتفال بعيد تأسيس النادي

واحتفل يوم (٥ إبريل سنة ١٩٠٩م) بعيد تأسيسه؛ لمناسبة مرور ثلاثة أعوام على إنشائه، فألقى عمر بك لطفي خطبة ذكر فيها الخدمات التي أداها النادي للنهضة العلمية والاجتماعية، إلى أن قال: «إن جل حسنات هذا النادي أنه -على قلة ذات يده- من أول العاملين على إنشاء مدارس الشعب، ذلك المشروع الذي قلدته فيه نظارة المعارف، فنشكرها على ذلك، وإن للنادي ثلاث مدارس للشعب يتعلم فيها ألف عامل كل ليلة، لكم أجر تعليمهم عند الله».

ثم دعا أمين أفندي الرافعي (بك) الطالب بالحقوق وأحد أعضاء مجلس الإدارة إلى الخطابة؛ فألقى خطبة مسهبة في حياة النادي وفضله، ختمها بقوله:

«والآن فلنهنئ أنفسنا بالمنزلة الكبيرة التي بلغها النادي وهو في اقتبال عمره وريعان شبابه، ولنهنئ أنفسنا بالأعمال الجليلة التي قام بها، فمن هنا بزغت شمس النهضة؛ ومن هنا تفجرت ينابيع العرفان، ومن هنا انتشرت نجوم الهدى، ومن هنا انفجر الشعور الحي؛ ولا جرم أن مثل هذا النادي، في نهضته ورقيه، وفي النتائج العظيمة التي وصل إليها، كمثل جنة بوبوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، مثله كمثل شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين. ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الظالمين»[1].

(١) كتاب «ذكرى المرحوم أمين بك الرافعي» للأستاذ محمد صادق عنبر، (ص ٨).

اطراد تقدمه

واجتمعت الجمعية العمومية السنوية للنادي (يوم الجمعة ١٥ إبريل سنة ١٩١٠م) برياسة عمر بك لطفي، وتلا السكرتير أمين أفندي الرافعي المحامي تقريره عن أعمال النادي، ونهض بعده أمين الصندوق الدكتور عبد العزيز نظمي، ثم رئيس النادي، ثم أعلنت الجمعية ثقتها بمجلس الإدارة؛ وتبين من تقرير أمين أفندي الرافعي مبلغ اطراد تقدم النادي، فقد كان عدد أعضائه حين افتتاحه في (٥ إبريل سنة ١٩٠٦م) (٢٤٠) عضوًا من طلبة المعاهد وخريجيها، فبلغوا (٤٧٠) في نهاية ديسمبر سنة (١٩٠٦م)، و(٥٤٩) في نهاية ديسمبر سنة (١٩٠٧م)، و(٦٨٥) في نهاية ديسمبر سنة (١٩٠٨م)، و(٧٧٣) في آخر ديسمبر سنة (١٩٠٩م)؛ أي زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول، ولما اجتمعت جمعيته العمومية في (إبريل سنة ١٩١١م) تبين أن عدد أعضائه بلغوا (٨٥٨)، وفي سنة (١٩١١م) اشترك فيه الأمير محمد عبد المنعم ولي عهد الخديوية المصرية وقتئذ، ودفع مائة جنيه اشتراكه السنوي، وأدرك من الشهرة ما جعل عنوانه التلغرافي الذي خصته به مصلحة التلغرافات (النادي)، وبالفرنسية CLUB، دون أي بيان آخر.

إهداء الفقيد إلى النادي مكتبته النفيسة

كان الزعيم واسع الاطلاع، مشغوفًا باقتناء الكتب، وله مكتبة نفيسة تحوي مجموعة كبيرة من الكتب القيمة في التاريخ والأدب والسياسة والاجتماع، وقد فكر في إهداء النادي هذه المكتبة، حتى يعم النفع بها، فبدأ في (أكتوبر سنة ١٩٠٨م) بإهدائه خمسمائة كتاب اختارتها لجنة من أعضاء النادي؛ وتمت هذه الهدية في الاجتماع الذي عقد ثاني أيام عيد الفطر (٢ شوال سنة ١٣٢٦هـ- ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٨م) لتبادل المعايدة بين أعضائه، فشكره المرحوم عمر بك لطفي على هذه الهدية العلمية الثمينة، وانتدب النادي بعد ذلك وفدًا برئاسة عمر بك لطفي وعضوية محمد أفندي زكي علي

(باشا) وأمين أفندي الرافعي (بك) أمين مكتبة النادي، فقابلوه يوم (٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨م)، وقدموا له كتاب شكر رقيق، هذا نصه:

«سعادة المفضال محمد بك فريد الأفخم:

إنَّ النادي يقدم لسعادتكم أبهى آيات الشكر، وأجمل عبارات الامتنان على أكبر هدية علمية وصلت إليه إلى الآن، فإن الكتب النفيسة الجليلة التي تكرمتم بها عليه، ستكون موردًا عذبًا للطلاب، ومنهلًا صافيًا لمنتجعي الآداب، ولقد أصبح النادي بفضلكم يحق له أن ينادي بأن لديه كتبًا قيمة، فعسى أن يقتدي بكم أفاضل القطر في تشجيع نوادي العلم والأدب، حتى ترتقي بفضله مصر ويبلغ أهلها نهاية الأرب».

رئيس النادي

عمر لطفي

فشكرهم الفقيد على هذه العواطف، وأعرب عن شعوره بأنه لا يستحق شكرًا على هبته؛ لأنه ما أهداه إياه إن هو إلا جزء مما يجب عليه نحو دار تضم صفوة الناشئة المصرية.

وفي سنة (١٩١١م) أهدى إليه جميع الكتب التي تحتويها مكتبته النفيسة، فصارت مكتبة النادي من أغنى المكاتب، وقد قدر النادي هذه الهدية العلمية حق قدرها، فوضعها في دواليبها المهداة من الفقيد في غرفة خاصة، وضعت بها صورته في إطار جميل بأعلى أحد الدواليب.

محاربة الحكومة للفقيد في عضوية النادي

وبعد أن رحل الزعيم إلى منفاه سعت الوزارة في قطع الصلة الروحية بينه وبين النادي، فطلبت في سنة (١٩١٢م) من عزت بك شكري رئيس النادي محو اسم المترجم من عداد أعضائه؛ بحجة الحكم عليه، وأنه صار بذلك (مجرمًا)! فهال عزت

بك الأمر، وكاشف الوزراء الذين كلموه في شأنه بصعوبة تنفيذ هذا الطلب؛ لتعلق الطلبة بالمترجم، فهددوه بإغلاق النادي إذا لم يتم ما طلبوه في أسبوع، وتحت تأثير هذا التهديد عرض عزت بك الأمر على مجلس إدارة النادي، فرفض أعضاء المجلس بالإجماع هذا الطلب، قائلين إنهم يفضلون إقفال النادي على قبول هذا العمل الذي ينطوي على نكران الجميل، فأبلغ عزت بك الوزراء هذا القرار، فطلبوا إليه بدلًا من شطب اسمه أن يطلبوا منه استقالته تلغرافيًّا، فرفض المجلس ذلك أيضًا، وأصر الطلبة على رفض هذا المسعى المنكر، فسكتت الحكومة إزاء هذا الإصرار.

وقد آلمت الفقيد هذه الحركة الوضيعة التي بدت من الحكومة؛ إذ لم يكن يتوقع أن تصل بها شهوة الاضطهاد إلى هذا الدرك الحقير، فتتدخل في شأن عضويته بنادي يضم أبناءه الطلبة الأوفياء، الذين يحبهم ويحبونه؛ فضلًا عما له على النادي من يد لم يجاره فيها أحد ممن طلبوا شطب اسمه، وخفف عنه هذا الألم موقف أعضاء النادي وتمسكهم بعضويته، ودفاعهم عن كرامته في غيبته، حتى انتهت الحادثة بإحباط مسعى الحكومة.

هذا وقد ظل النادي يؤدي رسالته الوطنية والاجتماعية، حتى أقفل بأمر السلطات العسكرية البريطانية سنة (١٩١٤م) في أوائل الحرب العالمية الأولى.

الحركة التعاونية

ظهر التعاون في مصر سنة (١٩٠٨م) على إثر الأزمة المالية التي انتابت البلاد سنة (١٩٠٧م)، وبدأت الدعوة إليه في نادي المدارس العليا، على يد المرحوم عمر بك لطفي رئيس النادي، وأبى التعاون في مصر، فقد فكر رحمة الله في إيجاد علاج دائم للأزمات الاقتصادية التي تستهدف لها البلاد، فاتجه فكره إلى اقتباس نظام التعاون عن أوربا وسافر صيف سنة (١٩٠٨م) إلى إيطاليا، باعتبارها من البلاد التي اشتهرت بارتقاء نظمها في التسليف التعاوني، وهناك درس التعاون الزراعي والتعاون في التسليف، واجتمع بالسنيور (لوزاتي) الملقب بأبي التعاون في إيطاليا، فتوافقت

آراؤهما ومبادئهما، وعاد إلى مصر ممتلئًا بحاجة مصر إلى النظام التعاوني، وألقى بنادي المدارس يوم (أول نوفمبر سنة ١٩٠٨م) أولى محاضراته عن التعاون، شرح فيها مزاياه، وتكلم عن نظام التعاون في التسليف بألمانيا وإيطاليا، والقواعد التي تسير عليها جمعياته وشركاته في تلك البلاد، وختم محاضرته بالحث على إنشاء هذه الجمعيات والشركات، ونصح بالبدء بالتعاون في التسليف؛ لأنه الكفيل بإنقاذ البلاد من آفة الربا الماحقة.

واستمر بعد هذه المحاضرة يدعو إلى التعاون في محاضرات ألقاها في النادي وفي نوادي الإسكندرية والمنصورية وطنطا ودمياط وغيرها، وأسس أول شركة تعاونية، وهي شركة التعاون المالي التجارية بالقاهرة (التي صارت الآن بنك التضامن المالي)، وكان تأسيسها بمقتضى عقد ابتدائي في (٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٩م)، وصدر بها الأمر العالي في (٢٧ يناير سنة ١٩١٠م)، وأسس أول جمعية تعاون زراعية (وكانت تسمى نقابة زراعية) في إبريل سنة (١٩١٠م)، بشبرا النملة مركز طنطا، وألقى بالنادي يوم (٢٤ مايو سنة ١٩١٠م) محاضرة عن إنشاء هذه النقابة، باعتبارها أول نقابة زراعية أنشئت في مصر، وكانت هذه المحاضرة بمثابة تجديد للدعوة إلى التعاون، قال:

«يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون إلا بجلب رءوس المال من البلاد الأجنبية، وإقراضها للأهالي حتى تدور حركة الأعمال كما كانت عليه قبل سنة (١٩٠٧م)، وفاتهم أن الديون التي على المصريين قد أثقلت عاتقهم، وأنه كلما كثر الدين زادت الفوائد التي تدفع سنويًّا لأرباب رءوس الأموال؛ فالتفريج من هذه الوجهة تفريج وقتي لا أساس له، ونتيجته في المستقبل ضارة وخيمة، وفي اعتقادي أن أهم أسباب المضاربات قبل سنة (١٩٠٧م) إنما كانت من تهاطل الأموال الأجنبية على مصر، وإقراض بعض البنوك النقود دون التفات إلى أوجه استعمالها، وبعبارة أخرى لو استعملت تلك الأموال لتنمية مصادر الثروة الحقيقية، أي التجارة والصناعة والزراعة، لما وقعت مصر في الأزمة المالية الحاضرة؛ بل كانت حال مصر

تتبدل من حسن إلى أحسن، وكان المصري اليوم يرتع في بحبوحة السعادة والهناء، وعندي أن أساس الاستقلال والحرية في كل أمة هو الاستقلال الاقتصادي، فالواجب إذن لترقية شئوننا الاقصادية أن يكون الماضي درسًا مفيدًا للمستقبل، وأن نوجه اليوم مجهوداتنا كافة لتقوية وتنمية مصارد الثروة المصرية الحقيقية، وعلى الأخص الزراعة، مع تحسين حالة المزارعين، حتى تجود أراضينا السخية بالمحصولات الجيدة، فيساعدنا ذلك على تسديد ما عليها وما علينا من الديون، وأن نسير في هذا الطريق رويدًا رويدًا، حتى نحرر البلاد من عبودية الدائنين، وأن اعتقادي أن هذا لا يتم إلا بإنشاء نقابات زراعية، وشركات التعاون، والمصارف الأهلية. إن الفلاحة المصرية مصابة بآفات، منها نقص المحصول، ودودة القطن، وعدم جودة تيلة القطن، وعدم وجود المصارف الكافية في بعض الجهات، وغير ذلك، والفلاح مصاب بكثرة الديون والاقتراض بالفوائد الفاحشة، والاضطرار دومًا إلى بيع المحصولات قبل أوانها بأثمان بخسة، ولا يوجد علاج لهذه الأمراض المتعددة إلا بإيجاد النقابات الزراعية».

وبث عمر بك لطفي الدعوة إلى التعاون في أعضاء النادي، فتشبعوا بها، وناصروه وأيدوه فيها، وكانوا النواة الأولى للحركة التعاونية، وأخذ تأسيس شركات التعاون على اختلاف أنواعها ينمو ويطرد على توالي السنين.

فالتعاون إذن قد ظهر في مصر أول ما ظهر سنة (١٩٠٨م)، وكان نادي المدارس العليا أول بيئة نشأت فيها هذه الدعوة الصالحة؛ من ذلك ترى أن التعاون قد عاصر الحركة الوطنية الأولى، وهو قبسٌ من نورها، وثمرة من ثمراتها، ولا غرو فهو ركن من أركان النهضة الاقتصادية والاجتماعية، القائمة على تعاون المجموع لمصلحة الفرد، وتعاون الأفراد لمصلحة المجموع، وهذا المبدأ هو أساس الفكرة التعاونية، كما أنه قوام الحركة الوطنية.

وقد استتبعت الدعوة التعاونية بعث النهضة الاقتصادية عامة، فنشطت في النادي حركة تعضيد الصناعة والتجارة الأهلية.

وفاة عمر بك لطفي

(٤ نوفمبر سنة ١٩١١م)

توفي عمر بك لطفي مؤسس الحركة التعاونية، ورئيس نادي المدارس العليا (يوم السبت ٤ نوفمبر سنة ١٩١١م)، فطويت بوفاته صفحة من صفحات النهضة القومية، خطها عمر بك بجهاده المشكور في تأسيس التعاون في مصر، وإنشاء نادي المدارس العليا والنهوض بالمشاريع الإنشائية الوطنية، والمساهمة في بثِّ روح العلم والاقتصاد والأخلاق والرجولة في نفوس الشباب، فلا غرو أن عمَّ عليه الحزن أرجاء البلاد، وبكاه نادي المدارس العليا، كما بكاه الحزب الوطني؛ إذ كان له مؤيدًا ونصيرًا، وشيعت جنازته يوم الأحد ٥ نوفمبر من منزله بشارع محمد علي في احتفال مهيب، سار فيه أعضاء النادي وطلبة المدارس العليا، وكبار رجال القضاء والمحاماة، وأعضاء الهيئات النيابية والأعيان، ووفود الأندية والنقابات، وشركات التعاون ونقابات العمال، وشيعوا جنازته إلى مرقده الأخير في مدافن الإمام.

رثاؤه

قصيدة شوقي

ونظم أمير الشعراء «أحمد شوقي بك» قصيدة مؤثرة في رثائه، تليت على قبره يوم تشييع جنازته، ناجى فيها الراحل الكريم، قال:

قفوا بالقبور نُسائل عمرْ ... متى كانت الأرض مثوى القمرْ؟
سلوا الأرض هل زُينت للعليم ... وهل أَرجت كالجنان الحُفر
وهل قام (رضوان) من خلفها ... يُلاقي الرضي النقي الأبر
فلو علم الجمع ممن مضى ... تنحى له الجمعُ حتى عبر

إلى جنـــة خُلقـــت للكـــريم ... ومـــن عَـــرَف الله أو مـــن قـــدر
بـــرغم القلـــوب وحباتهـــا ... ورغـــم الـــسَّماع ورغـــم البـــصر
نزولـك في الـترب زيـن الـشباب ... ســناء «النـدى» ســنى المـؤتمر
مقيـلَ الـصديق إذا مـا هفـا ... مُقيـل الكـريم إذا مـا عثـر
حييـت فكنـت فخـار الحيـاة ... ومـت فكنـت فخـار الـسير
عجيـبٌ رداك وأعجـب منـه ... حياتـك في طولهـا والقـصر
فـما قبلهـا سـمع العـالمون ... ولا عملـوا مُـصحفًا يختـصر
وقـد يقتـل المـرء هـم الحيـاة ... وشـغل الفـؤاد وكـد الفكـر
دفنـا التجـارب في حفـرة ... إليهـا انتهـى بـك طـول الـسفر
فكـم لـك كـالنَّجم مـن رحلـة ... رأى البـدو آثارهـا والحـضر
«نقاباتـكَ» الغـر تبكـي عليـك ... ويبكـي عليـك «النـدي» الأغـر
ويبكـي «التعـاون» مـن سـنه ... عـشية لـيس لـه مـن أثـر
ويبكيـك «حـزبٌ» تخيرتـه ... شريـف المـرام شريـف الـوطر
ويبكـي الأولى أنـت علمـتهم ... وأنـت غرسـت فكـانوا الثمـر
حياتـك كانـت عِظـات لهـم ... وموتـك بـالأمس إحـدى العـبر
سـهرنا قُبيـل الـردى ليلـة ... ومـا دار ذكـرُ الـردى في الـسمر
فقمـتَ إلى حفـرة هيئـت ... وقمـتُ إلى مثلهـا تُحتفـر
مـددت إليـك يـدًا للـوداع ... ومـد يـدًا للقـاء القـدر
ولـو أن لي علـمَ مـا في غـد ... خبأتـك في مقلتـي مـن حـذر
وقـالوا: شـكوتَ فـما راعنـي ... ومـا أول النـار إلا شرر
رثيتـك لا مالكًـا خـاطري ... مـن الحـزن إلا يـسيرًا خطـر
ففيـك عرفـت ارتجـال الـدموع ... ومنـك علمـت ارتجـال الـدرر
ومثلـك يُرثـى بـآي الكتـاب ... ومثلـك يُفـدى بنـصف البـشر
فيـا قـبرُ كـن روضـة مـن رِضًى ... عليـه وكـن باقـة مـن زهـر

سـقتك الـدموع فـإن لم يـدمن كعـــادتهن ســـقاك المطـــر

وقد نعاه قاضي محكمة عابدين الأستاذ مصطفى بك النحاس (باشا)، وكان من أنصار الحزب الوطني، وأعلن وقف الجلسة حدادًا على الفقيد، وقال في هذا الصدد ما يأتي:

«حدادًا على وفاة المرحوم عمر لطفي بك، الذي كان وكيلًا لمدرسة الحقوق الخديوية ومدرسًا لها سابقًا، والذي له فضل كبير في تنوير المشتغلين بالقضاء من قضاة وأعضاء نيابة ومحامين، والذي كان محاميًا كبيرًا، طالما خدم القضاء بمساعدته على إظهار الحق، والذي كان عاملًا كبيرًا في نهضة البلد الحقيقية العملية، فحدادًا عليه قررت المحكمة إيقاف الجلسة ربع ساعة».

وانتخب الجمعية العمومية عزت بك شكري رئيسا للنادي، خلفًا لعمر بك لطفي، وكان عزت بك قاضيًا سابقًا بالمحاكم الأهلية.

استمرار الحركة التعاونية

أثمرت دعوة المرحوم عمر بك لطفي، فتم على يده تأسيس عدة نقابات زراعية، ثم عاجلته المنية وهو يجاهد في سبيل نشر التعاون في كافة نواحي البلاد؛ ولكن دعوته لم تمت، فقد استمر أنصاره وفي مقدمتهم شقيقه أحمد بك لطفي يدعون الأمة إلى تأسيس النقابات، وشركات التعاون، فانتشرت الأفكار والمبادئ التعاونية في البلاد، وتعددت النقابات وشركات التعاون المنزلي، ونقابات العمال والصناع.

ولما كان من عوامل ارتقاء الحركات التعاونية إنشاء النقابات العامة، فقد كان المرحوم عمر بك يعد المعدات لتأسيس نقابة عامة للتعاون المنزلي والزراعي؛ ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق هذا المشروع، فسعى الأستاذ أحمد بك لطفي في تحقيق أمنيته، وتأسست النقابة العامة في أوائل سنة (١٩١٢م)، والغرض منها توحيد التعاون في البلاد، واتخاذ مكان مركزي له بمدينة القاهرة، وإعداد رجال عاملين له

مدفوعين إلى نشره وبث مبادئه، ودرس الوسائل الاقتصادية والتجارية التي تسهل للمتعاونين من أعضاء النقابات وشركات التعاون الحصول على حاجاتهم، سواء كانت اعتمادات مالية، أو أدوات زراعية، أو بضائع، وقد كان من أهم أسباب الدعوة إلى إنشاء النقابة العامة، أن النقابات الزراعية وشركات التعاون المنزلي التي تأسست في جهات متفرقة من البلاد، كانت تقتصر في عملها على قضاء حاجاتها، فلا تتمكن من نشر فكرة التعاون في الجهات الأخرى، أو تبادل الآراء والمصالح المشتركة مع باقي النقابات وشركات التعاون. والتعاون وإن كان في ذاته قوة، إلا أن هذه القوة تكبر بتعميم العلاقات وتوثيق الروابط بين شركاته؛ لأن في ارتباط تلك الشركات ما يسهل لها القيام بأعمالها، لذلك كان للنقابة العامة يد طولى في تنشيط حركة التعاون.

قانون الخمسة الأفدنة

في أول مارس سنة (١٩١٣م) أصدرت الحكومة قانونًا له علاقة كبيرة بالتسليف الزراعي والحركة التعاونية، ونعني به قانون الخمسة الأفدنة (القانون رقم ٤ لسنة ١٩١٣م)، وخلاصته عدم جواز نزع ملكية الأملاك الزراعية، التي يملكها الزراع الذين ليس لهم من الأطيان إلا خمسة أفدنة أو أقل، ويدخل فيما لا يجوز نزع ملكيته مساكن الزراع المذكورين وملحقاتها، والآلات الزراعية التي يملكونها ويستخدمونها لاستثمار أرضهم، وكذلك دابتان من الدواب المستعملة للجر، والغرض من هذا القانون حماية الملكية الزراعية الصغيرة، وجعل صغار المزارعين بمنجاة من نزع ملكيتهم، على أنه قد وضع على عجل، فاشتمل على أوجه نقص عدة؛ منها أنه قصر حمايته على المالكين لخمسة أفدنة أو أقل، ومعنى ذلك أن من يملك أكثر من خمسة أفدنة ولو بقيراط واحد، لا يحميه القانون، ولو نقصت أملاكه في المستقبل عن خمسة أفدنة، ولا يعتبر جديرًا بأن يستبقي خمسة أفدنة يتعيش منها، وبذلك يصير أسوأ حالًا من الزارع الصغير، وهذا لا يتفق مع حكمة التشريع؛ لأنه ما دام الغرض منه حماية الملكية الزراعية الصغيرة، فسيان أن يكون الزارع في الأصل مالكًا لما لا يزيد على

نصاب هذه الملكية أو لأكثر منه، وكان الواجب أن يضمن القانون لكل مالك حدًّا أدنى من الملكية يخرج من التنفيذات العقارية ليقوم بأوده، ويقيه غائلة السقوط في وهدة الفقر والفاقة، ولا شك أن المالك لأكثر من خمسة أفدنة جدير بالاستفادة من هذه الحماية إذا هبط ملكه إلى خمسة أفدنة أو أقل، وصار بذلك من طبقة صغار الملاك المزارعين الذين تجب حمايتهم.

ومن أوجه النقص في هذا القانون أنه لم ينص على عدم جواز التصرف في الخمسة الأفدنة، ولم يقيد التصرف فيها بقيود تحول دون خروجها من يد مالكها بطريق البيع، ومنها أن المشروع حين أصدر هذا القانون لم يوجد للزراع مصدرًا صالحًا للتسليف الزراعي يجد فيه صغرا الملاك الزراعيين المال الذي يحتاجون إليه لاستثمار ملكيتهم الصغيرة، فلا يضطرون إلى بيع ملكهم.

فقانون الخمسة الأفدنة في ذاته ليس هو العلاج الناجع لحماية الملكية الصغيرة، لذلك ارتفعت الأصوات من كل جانب بعد صدوره، طالبة من الحكومة أن تعضد الحركة التعاونية بإصدار تشريع يساعدها على النهوض ويجعلها أداة صالحة للتسليف الزراعي.

قانون التعاون

وقد تحركت الحكومة سنة (١٩١٤م)، فوضعت مشروع قانون التعاون؛ ولكنه جاء مشروعًا رجعيًّا، كثير العيوب، خاليًا من المزايا، يضع العراقيل في سبيل الحركة التعاونية، وكان موضع جد طويل في الجمعية التشريعية ولكنه لم يصدر، وطويت صفحته لقيام الحرب العالمية في (أغسطس سنة ١٩١٤م).

وبالرغم من عدم صدور قانون صالح للتعاون، فإن الحركة التعاونية استمرت في النمو والاتساع، بفضل جهود أنصار التعاون من تلاميذ عمر بك لطفي، وفي ذلك

يقول الدكتور إبراهيم رشاد بك مدير مصلحة التعاون في كتابه «التعاون الزراعي» ما يلي:

«صار (مشروع) قانون سنة (١٩١٤م) عبارة عن مجموعة من القواعد القائمة على عدم توفر حسن الظن بالشعب، وخشية صيرورة الجمعيات الزراعية مراكز سياسية تناهض حكومة ذلك العهد، ولذا جعلت للحكومة سلطة كبيرة في تكوينها وحلها، كام جعلت هيمنتها عليها بالتفتيش والمراقبة الشديدة أمرًا لا مفر منه، فأصبحت تلك القيود في الواقع معطلة إلى حد كبير لما في القانون من منافع؛ بيد أنه رغمًا عن عدم مساعدة الحكومة لحركة التعاون والتشريع الخاص به مساعدة حقيقية،لم تعدم الأمة رجالًا يأخذون بناصره، ويعملون على تذليل الصعاب القائمة في سبيله، وبذل الجهود الكفيلة بتمهيد الطريق لتأسيس المنشآت التعاونية، ولقد سار هؤلاء الرجال على المنهج الذي انتهجه لهم المرحوم عمر بك لطفي، فحملوا لواء التعاون من بعده، وكان في مقدمتهم أحمد بك لطفي الذي أسس «النقابة العامة للتعاون» تحقيقًا لأمنية الفقيد أخيه، وتوحيدًا للتعاون بالبلاد، كام أنه أنشأ عدة منشآت تعاونية، ثم عبد الرحمن بك الرافعي الذي عني بإخراج أول كتاب في التعاون في بلادنا (نقابات التعاون الزراعية، نظامها وتاريخها وثمراتها في مصر وأوربا سنة (١٩١٤) جاء فيه بشرح الأنظمة التعاونية ومزايا جمعياتها في مصر وفي أوربا، وبحث فيه بوجه خاص الحالة المالية للفلاح المصري، وإصلاح التسليف الزراعي التعاوني، والذي عمل على تأسيس عدد من الجمعيات التعاونية، منزلية وزراعية، ثم صادق بك حنين الذي له فضل إدخال علم التعاون الزراعي في برنامج التعليم الزراعي العالي، والذي قام بتدريسه تدريسًا أصوليًّا لأول مرة في مدرسة الزراعة العليا بالجيزة، ووضع مؤلفًا قيمًا في التعاون الزراعي خص بالإسهاب فيه بنوك التعاون»[1].

(١) كتاب «التعاون الزراعي» للدكتور إبراهيم رشاد بك، ج١ ص١٠.

وفي سنة (١٩٢٣م) أصدرت الحكومة قانونًا للتعاون جعل النظام التعاوني حكوميًّا بحتًا، وهذا يخالف الروح التعاونية؛ إذ هي في أصلها روح شعبية، ويجب أن تبقى كذلك، وقد ظهرت عيوب هذا القانون مع الزمن، وارتفعت الأصوات بإصدار تشريع جديد، يحقق مبادئ التعاون الحقيقية؛ فصدر (القانون رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٧م)، وهو قانون شامل للتعاون بسائر أنواعه، صالح في مجموعه، يجعل التعاون شعبيًّا حكوميًّا، والمأمول أن يطرد تقدم التعاون بفضل تضافر جهود المتعاونين من الأفراد والجماعات، وتعضيد الحكومة وتشجيعها لجمعيات التعاون، وبذلك تتحقق الأغراض الاقتصاية والاجتماعية للحركة التعاونية.

obeikan.com